مَجلّة جَامعة بَابل للعُلوم الإنسَانيّة Journal of the University of Babylon for Humanities
المجلد 30/ العدد 1/ 2022 Vol. 30/ No. 1/ 2022

تطورُ الموقف الروسي من الآخر العثماني، في القرن التاسع عشر

محمد علي محمد عفين

قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل

email: mohamed.a.m@uomosul.edu.iq

تاريخ استلام البحث2021/12/20 تاريخ قبول النشر: 10 /2022/1 تاريخ نشر البحث: 15/1/ 2022

المستخلص

هناك على الدوام مؤثراتٌ مختلفة تتلاقى فيما بينها لتحدّد شيئين غالباً ما يكونان متلازمين، وهما طبيعة الهوية والموقف من الآخر سواء على الصعيد الجمعي أو الفردي. وتشكل المواقف الجماهيرية والثقافية العامة قواعد مهمة في تشكيل صورة الآخر في أي مجتمع كان أو جماعة، صحيح أنّ المواقف السياسة والعسكرية لها الثقل المباشر في تشكيل هذه الصورة، وبالتالي تحديد الموقف؛ إلا أنّ التصورات والمواقف الشعبية والثقافية أيضاً تُعد اللبنةَ الأساسية التي تتخذها السياسة في الاعتبار عند اتخاذ مواقفها السياسية.

فالموقفُ الثقافي وحتى الشعبي يعبِّر عن الرأي العام الذي يحدّد مواطنَ التماسكِ والضعف في القرار السياسي، لذلك غالباً ما عملت الحكوماتُ من خلال برامجها الدعائية والسياسية على التدخّل في تشكيل النمطية الثقافية الجماهيرية وتوجيهها؛ بحسب تطلعاتها ومصالحها؛ على اعتبار أنْ هذا بمثابة تهيئة أرضية ورأي عام لسياستها.

وتتداخل عواملُ كثيرةٌ أخرى في تشكيل صورة الشرق عموماً والآخر العثماني خاصة في المواقف الروسية، منها عوامل ذات صلة بتركيبة الثقافة السارية، ومنها عوامل ذات صلة بالسياسية وطموح الهيمنة والصراع. كمان أن هناك العامل الخارجي الذي له ارتباطات سياسية وعقائدية تطفوا على السطح كإفرازات وقرارات ومواقف تصل أحيانا إلى حد إعلان الحرب الفعلية.

فمثلا تشكّل أحداثُ البلقان أهمية كبيرة في تحوّل روسيا ثقافياً نحو الغرب؛ وتكوين هويتها على نحو يختلف عما كانت عليه سلفاً، صحيح أنّ أحداث البلقان سياسية بالدرجة الأولى؛ إلا أنها ومن جانب آخر ذات بعد ثقافي؛ نظراً لميل دول البلقان نحو الغرب بدوافعَ قومية أو مؤثرات خارجية.

وفي الوقت نفسه تكون عملية التغريب وما تحمله من عناصر الانبهار التي نجمت عن تطور الغرب الأوربي ذات أثرٍ في تحول الهوية الروسية وتنازعها بين الشرق والغرب متأثرة بالسياق الذي كان ساريا آنذاك لدى دول البلقان بعامة؛ بسبب تأثير القوي؛ فالقوي على دوام له نفوذ ثقافي وسياسي؛ بحسب رأي ابن خلدون؛ والضعيف يقدم تفسيرا لحالة اقتداء المغلوب بغالبه؛ ويحيل ذلك إلى انبهار المغلوب بالغالب؛ اعتقاداً من المغلوب بكمال الغالب وقوته سواء على مستوى القوة أو على مستوى العمران والتمدن والتحضّر.

يسلط البحثُ الضوءَ على تلك العوامل؛ ليخرج بتصور عن كيفية سريان ونفاذ تطور الانتماء الروسي وتوزعه بين الشرق والغرب وبالتالي علاقته بالدولة العثمانية. مع اعتبار أن هنالك عوامل عقيدية وقومية وأطماع تآزرت جميعا واتخذت مسوغات لاتخاذ موقف من الآخر العثماني؛ لتنعكس على المواقف السياسية والتدخلات العسكرية.

الكلمات الدالة: الموقف الروسي– الآخر– العثماني

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a

Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652

humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

Journal of the University of Babylon for Humanities مَجلّة جَامعة بَابل للعُلوم الإنسَانيّة
Vol. 30/ No. 1/ 2022 المجلد 30/ العدد 1/ 2022

The development of the Russian position on the Ottoman other, in the nineteenth century other, in the nineteenth century

Mohamed Ali Mohamed Ofein
Department of History/ College of Arts/ University of Mosul
email: mohamed.a.m@uomosul.edu.iq

Abstract

There are always different influences that converge among themselves to determine two things that are often correlative, namely, the nature of identity and the attitude towards the other, whether at the collective or individual level. Public and general cultural attitudes constitute important rules in shaping the image of the other in any society or group. Political and military positions have a direct role in shaping this image, and thus determining the position; However, popular and cultural perceptions and attitudes are also the basic building block that politics takes into account when taking its political positions. The cultural and even popular stance expresses the public opinion that determines the areas of strength and weakness in the political decision. Therefore, governments often worked through their propaganda and political programs to interfere in the formation and direction of the mass cultural stereotype; according to its aspirations and interests; On the grounds that this constitutes the preparation of the ground and public opinion for its policy. Many other factors overlap in shaping the image of the East in general and the other (Ottmans) in particular in the Russian stances, some of them are related to the composition of the prevailing culture, and some are related to politics and the ambition of hegemony and conflict. There is also the external factor that has political and ideological links that appear as results, decisions and positions that sometimes reach the point of declaring actual war.

Keywords: Russian position - othering- Ottoman

متن البحث

يبدي التوجّه الأكاديمي الروسي مؤخراً عناية بالعلاقات بين الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية، ولأسباب عديدة منها: الاهتمام الشديد بالماضي الإمبراطوري لروسيا؛ بسبب زوال الاتحاد السوفيتي وما تابعه من تغيرات جيوساسية طالت الوحدة السياسية والجغرافية لروسيا وأثرت على موقفها مِن الشرق عامة وتركيا بشكل خاص. وبسبب التغيرات المتسارعة في العالم وتنامي قدرات تركيا سياسياً واقتصادياً وثقلها في الشرق الأوسط، وبسبب المستجدات في الموقف الأمريكي من الشرق؛ فـــ"التقدم العام للدراسات التركية في روسيا يقابله توجه سياسي خارجي نشط لتركيا الحالية؛ وفي ظل التطورات السياسية العالمية المتسارعة" الذي يذكرنا بطريقةٍ ما بأيام الإمبراطورية العثمانية؛ والوزن السياسي والعسكري لتركيا في منطقة الشرق الأوسط ".[1: ص99].

وما هو معروف من كون التطورات التاريخية لها على الدوام أثر في توجيه مسارات الإحداث والمواقف السياسية؛ فمهما كان التباين كبيرا بين الروس وأوربا الغربية إلا أن هناك عوامل مشتركة تجمعهم

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

على موقف ربما كانوا في أزمان معينة مختلفين فيه. وبلا شك فإن للجذور التأريخية أثر فاعل في تحديد مواقف الدول والسياسات فالتاريخ عبارة عن رواسب عقائدية وهواجس وحواجز تنشأ بين التكوينات البشرية عامة.

فمثلاــ "بعد الفتح العثماني للقسطنطينية تمَّ التأكيد على الآخر التركي مِن المنظور الديني الذي أطلقه في منتصف القرن الخامس عشر البابا بيوس الثاني، ثمَّ تحوَّل موضوع الحروب الصليبية لاحقاً إلى خطاب الآخر الشرقي المناهض لأباطرة أوربا. وبعد هزيمة الجيش العثماني في فيينا عام 1683، تحوَّلت الدلالات الدينية السائدة عن العثمانيين إلى دلالات سياسية وثقافية. تمَّ ترويج الروايات الأوروبية عن الإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر على افتراض أنَّ العثمانيين في الأساس مُعاديين للتنوير والحضارة."[2: ص2] .

وستتغلغل هذه الرؤية لتعمّ أوربا بمستوى أو بآخر، وكلّ بحسب ما تجلبه له هذه الرؤية من منافعَ سياسيةٍ؛ وإنْ حملت في ظاهرها إطاراً دينياً. لكن الدافع الحقيقي سياسي وتوسعي؛ لاسيما بعد ما بدأ الضعف يدبُّ في أوصال الدولة العثمانية، وهذا بدا جلياً لدى روسيا على الخصوص.

وبعبارة أخرى "أصبحت الإمبراطوريةُ العثمانية المحورَ الأساسي للجغرافيا الرمزية التي تنطوي عليها ظاهرة الاستشراق التي أشار إليها إدوارد سعيد بأنها أسلوبٌ غربي للسيطرة على الشرق وإعادة هيكلته وسلطته؛ على وفق فكرة ميشيل فوكو عن الخطاب، ونظرية أنطونيو غرامشي للهيمنة الثقافية. عرّف سعيدٌ الاستشراق بأنه: هيكل للسيطرة الثقافية وليس فقط مجموع الأفكار حول تفوّق أوروبا على الشرق" [3: ص7]. أيْ إنّ الدولة العثمانية بقيت تحت تأثير التصنيف الديني الأوربي حتى مع انبلاج حركات التنوير والعلمنة في أوربا؛ وتراخي الدوافع الدينية في التأثير على التحركات السياسية.

ومن المفيد استعراض بعض المؤثرات التاريخية التي كان لها صدى عميق في تغيرات الموقف الروسي من الآخر العثماني لاسيما المؤثرات الخارجية التي اقترنت بطموحات سياسية تغلفت بأبعاد عقيدية. والنموذج الأكبر في هذه المسالة موقف بطرس الأكبر من الغرب سواء بتأثير الإصلاحات التي روج لها أو بدافع سياسية يصب في تطلعاته ومصالحه.

فــ"في القرن الثامن عشر أوقفت الحكومة تقريبا تعظيم الكنيسة كونها سلطة أخلاقية؛ سواء فيما يخص نشاطاتها، أو بوصفها قوة في المجتمع، وعدت عنصرا أساسيا في التربية الأخلاقية لدى الطبقات الدنيا ليس إلا، وهي خطوة بدأت منذ عهد بطرس الكبير (1682–1752).

لكن لهذه القضية جذورا تاريخية أبعد، إذ منذ عهد بطرس الأكبر شهدت علاقة السلطة القيصرية بالكنيسة تغيرات جذرية، فقد كان بطرس متأثرا بشدة بالحركة اللوثرية، فاعتقد أنّ الكنيسة الروسية يجب أن يعاد تنظيمها على النموذج الأوروبي، وكان المبدأ الأوروبي هو أن دين الحاكم هو دين الدولة، وتحت تأثير

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

اللوثرية، والرغبة في منع إمكانية ظهور أي تكوين جديد فقد وصل بطرس إلى نتيجة مفادها أن الكنيسة المستقلة ضارة، ومن الواجب إخضاعها إلى سلطة مدنية"[4: ص110–111].

إن الميل نحو اللوثرية من لدن بطرس الأكبر علامة فارقة في تاريخ الإمبراطورية الروسية وميلها إلى الغرب على حساب العلاقات العثمانية. إن التغير الديني أمر طبيعي إلا انه هنا اتخذ منحًى عابراً لقضية المعتقد؛ لأن الميل إلى اللوثرية هو ميل إلى البروتستانتية التي أصبح لها في أوربا الغربية الثقل الأكبر؛ بما في ذلك أمريكا. وهذا يعد نوعاً من الانسياق وراء التوجّه الغربي عقائدياً؛ سوغته حركة التجديد التي كان بطرس الأكبر يطمح إليها. مع أنه وعبر الأدبيات الكنسية الغربية والخاص بتاريخ الكنيسة الكاثوليكية كان الميل إلى البروتستانتية يعد ميلا إلى الهرطقة التركية أو العثمانية. إذ منذ وقت مبكر " كان الهجوم البروتستانتي – على رأي البابا بشأن الحملات الصليبية – يُعد جزءاً من الهجوم على امتيازات الكنيسة الرومانية ونفوذها. وبينما كان لوثر والبروتستانت يشبِّهون الكنيسة الرومانية والبابا بالكفار العثمانيين، كان الكاثوليك ينسبون إلى البروتستانت النعوت نفسَها. وفي عام ١٥٢٩م كان الشعار الحربي "من أجل حرب صليبية عامة بهدف وقف الكفرة والقضاء على الطائفة اللوثرية [5: ص115]. .

" وقبل أنْ يقوم بطرس بزيارته الأولى لأوروبا أراد أن يقوم بعمل ملحوظ في السياسة الخارجية. فقام في سنة ١٦٩٥ بأولى المحاولات الخاصة بفتح باب الاتصال بأوروبا.

ودفعته العوامل إلى أن يبدأ الحرب ضد الأتراك لأنهم كانوا أكثر ضعفا، ومشغولين بالحرب ضد النمسا كما أنه كان في وسع الحرب ضدهم وهم من المسلمين أن تأخذ شكل حروب صليبية علاوة على لونها السياسي، وكان بقائهم في القسطنطينية العاصمة السابقة للعالم، يعمل على إيقاظ الروح الدينية لدى الروس الأرثوذكس.

فأعلن عام 1695 الحربَ على الدولة العثمانية بحجة منع اعتداءات تتار القرم؛ عبر الاستيلاء على ميناء آزوف الواقع على مصب نهر الدون. ووجد بطرس أن الطرق العادية في الحصار عديمة الجدوى طالما كان خصمه يتلقى الإمدادات بطريق البحر. فعمل على بناء أسطول في فصل الشتاء. وفي العام التالي جدد الهجوم على أزوف ونجح في الاستيلاء عليها، وكان لذلك صدى في أوروبا"[6: ص34]. يعزز موقفها المضاد للدولة العثماني سياسياً وعسكرياً.

ولاشك في أن الميل إلى الإصلاحات اللوثرية وتجديد النزعة الصليبية – وإن كان ضمنياً – عزز الدافع القومي وإنْ اتخذت طابعا دينياً، وهذا ما حصل بالضبط مع روسيا من خلال توجهات بطرس الأكبر؛ فضلاً عن عوامل أُخر ساعدت على ميل روسيا إلى الغرب وتغير موقفها من الدولة العثمانية.

وإزاء هذه المواقف والجذور التاريخية المتأثرة بعملية التغريب التي بدأت تاريخيا ببطرس الأكبر وكانت المناهضة بصورة أو أخرى للوجود العثماني تأثرت الحركاتُ الثقافية وشكلت لها مواقف وامتدادات كان لها أثر كبير في تشكيل الموقف الروسي من الدولة العثمانية؛ على صعيد الثقافة والعمل السياسي والعمل

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

الثوري. فضلاً عن تطور منافذ التأثير بالغرب مباشرة عبر مسالك مختلفة منها النزعات القومية في أقاليم الإمبراطورية الروسية، ومنها نشاطات المستغربين الروس وتشربهم بالداعية الغربية والثقافة الوافدة ذات الإطار القومي.

وسيجري في ثنايا البحث عرضٌ لهذه الاتجاهات التي أسهمت في تشكيل تصور شامل عن مجمل الموقف الروسي مِن الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، والتي من العسير نزعها عن مؤثرات وأحداث حصلت قبل هذا التاريخ.

ومن البديهي أنْ يتأثر المستغربون الروس بالتصورات الغربية عن الدولة العثمانية؛ لاسيما وأنَّ الدراسات الاستشراقية الروسية كانت متخلفةً؛ مقارنة بالحال الذي هو عليه في أوربا الغربية. فالأدبيات الغربية عن الشرق هي ذاتها التي انعكست على الروس المتشرّبين بالثقافة الغربية بما في ذلك الموقف من الدولة العثمانية.

"قد يبدو غريباً للغرب، وحتى لأولئك المسلمين المتعلمين في ظروف غربية أنْ تكون الإمبراطورية العثمانية قائمة على القانون. لقد بذل الكتاب الغربيون طيلة قرون جهدا في وصف العالم الإسلامي باعتباره مهد الطغاة الشرقيين المتحررين من القيود التي يفترض أنها مفروضة على الحكام الغربيين. وفي الواقع، كان أكثر المفكرين الغربيين تنوراً وحباً للقانون « مونتسكيو Montesquieu) « مثالا مشهوراً، إذ استعمل صورة الشرق الإسلامي بوصفها أداة أدبية لإبراز نظرتهم عن أسوأ نظام ممكن.

كانوا يقومون بهذا ليس انطلاقا من حقد أو ضغينة، ولكن لأن أي تشبيه سياسي جيد يحتاج إلى مقابلة بين الخيال والواقع المرير. وحتى المفكرون الأفذاذ مثل عالم الاجتماع الألماني العظيم « ماكس فيبر Max Weber)) استعمل الإسلام في شيء مِن هذا القبيل"[7: ص58].

ولاشك في أن التأثر الحضاري يستجلب معه كل الحمولات والتصورات؛ وهذا ما حدث مع الروس في تأثرهم بأوربا الغربية؛ ولاسيما فيما يخصُّ الشؤون الفكرية والقوانين والدراسات الحضارية. دون النظر في المقارنة بين ما كان عليه الدول الغربية من بطش ومصادرة للحقوق وحروب دامية على السلطة دامت لقرون. لكن الاستشراق يلعب دوره في تصنيع صورة الآخر كقوالب جاهزة أو أخيلة يصطنعها هو في رسم معالم صورة الآخر. وهذا ما أسهب ادوارد سعيد في تحليله مطولا في كتابه الاستشراق. ومن هنا فإن الاستشراق راح يتغلغل في الذهن الروسي الداعي إلى التغريب من خلال ترجمة الأفكار والنظريات.

وعلى الرغم مِن وازع العلمنة لدى أوربا الغربية بقي العثماني هو العثماني من منظور عقائدي؛ حتى مع غياب الخطاب الديني الذي كان سائداً إبان الحروب الصليبية. بينما حدث العكس مع الشعوب الأرثوذكسية إذْ "جرى التحوّل مِن المصطلحات الدينية إلى المصطلحات العلمانية في التصور الأوربي للشعوب الأرثوذكسية في شرق وجنوب شرق أوروبا؛ الذين كان يُنظر إليهم في وقتٍ سابق على أنهم رومٌ أرثوذكس ".[8]

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a

Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652

humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

ويتتبع بعضُ الباحثين العلاقات المضطربة في تحديد الهوية الروسية وكيف تتوحّد أحيانا بدوافع استشراقيه وتتجاوز الاختلافات بين أوربا الغربية وبين روسيا التي هي على خلاف عقائدي يتمثل بالأرثوذكسية وموقعها الجغرافي الموزع بين أوربا وآسيا.

تناول لاري وولف، وماريا تودوروفا في كتابهما: (اختراع أوربا الشرقية The Invention of Eastern Europe) إشكالية الجغرافيا الرمزية عبر دراسة تصورات أوروبا الغربية لأوروبا الشرقية والبلقان، وأظهر تلك الدراسة التشابه العميق بين الخطابات السياسية وبين خطاب الاستشراق الكلاسيكي في تشكيل الهوية الأوروبية؛ في مقابل تحديد هوية سلبية عن الأخر العثماني؛ التي مثلت فيها أوروبا الشرقية والبلقان بوصفها مناطق امتداد لأوروبا الغربية. ومنها نفهم كيف تحوّلت الحدود الدينية القديمة بين المسيحية والإسلام، والكاثوليكية والأرثوذكسية، إلى جبهة تفصِل الحضارة عن البربرية، وحينها لم يدخر الملوك الروس في القرن الثامن عشر جهداً كبيراً لكي يصبحوا جزءاً من نظام الدول الأوروبية، ويحصلون على الاعتراف بهم حكاماً مستنيرين[9: ص539].

وبالعموم تتميز المواقف الروسية من الدولة العثمانية بأنها تشكل صورة لمواقف الروس من قضية الانتماء الإقليمي والعرقي والحضاري وبالتالي الديني والذي يتنازعه توجهان: الانتماء إلى الشرق والانتماء إلى الغرب، وهذا التنازع شهد تبايناً واضحاً؛ نتيجة التغيرات العسكرية والثقافية والسياسية التي مرت بها روسيا منذ نهاية القرن الثامن عشر وصعوداً إلى القرن العشرين.

والموقف الروسي من عموم الشرق ومن الدولة العثمانية على الخصوص يتعلق بتنامي الهوية الروسية الذي عانت مِن اضطرابٍ وتبدل ما زال مستمرا إلى الآن. ويشكل اثر الهوايات الثقافية ثقلا في رسم معالم المواقف السياسية والأخلاقية من الآخر.

" فالهويات الثقافية لا تتلاءم مع بعضها، وتشكل مقومات وأرضيات متراكمة محددة دون أنْ تترك أثراً؛ فكل فرد هو شخصٌ متعدد الثقافات، وكلّ انتماء يُسهم في تكوين الشخص الذي نكوّنه. فكيف تكون نشأة ثقافة مجموعة بشرية؟. الجواب الذي يحمل تناقضا في طياته هو: إنها تأتي من الثقافات السابقة. فالثقافةُ الجديدة تنشأ من لقاء ثقافات محدودة الحجم، أو من تفكك ثقافة أكثر شمولاً، أو من التفاعل مع ثقافة مجاورة" [10: ص59]. وهذا هو محور موقف روسيا من انتمائها لآسيا أو لأوربا، أو بتعريف جيوسياسي موقف روسيا من الشرق عموما ومن الغرب الأوربي على وجه الخصوص.

و"غالبا ما تعكس وجهات النظر الروسية لآسيا تأملات حول هويةِ الأمة، مثل تلك المتعلقة بأوروبا. وإذا كان النقاش في القرن التاسع عشر بين السلافوفليين[1][11: ص117–240] .والغربيين قد حظي بقدر

(1) سلافيليا حركة فكرية نشأت في القرن التاسع عشر أسسها أليكسي ستيبانوفيتش خومياكوف أرادت تطوير الإمبراطورية الروسية على أساس القيم والمؤسسات المستمدة من تاريخها المبكر. وكان السلافوفليين يعارضون تأثيرات أوروبا الغربية في روسيا كمـــا

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

كبير من العناية؛ فإنَّ الشرق كان له دورٌ مُشابه في سعي روسيا المستمر لفهم مكانتها الحقيقية في العالم؛ وهي تتنازع بين جذبين جذب أوربا الغربية وجذب جيوسياسي يحدد انتماءها إلى آسيا وتحديدا بتأثر علاقتها بالدولة العثمانية.

وموقف الروس من آسيا "قد تطوّرت قبل الحقبة السوفيتية عبر ثلاث مراحل؛ فمنذ القرن السابع عشر كان الروس يميلون إلى تحديد الشرق ضمن الشعوب البدوية على حدودهم الشرقية" [11: ص117–240]. وابتداء من مطلع القرن الثامن عشر–ومع جهود بطرس الأكبر وورثته– حدث تحوّل موسكوفي :12][(2)ص50] .إلى قوة غربية حديثة عملت على إضفاء شعور بتفوّق الروس في آسيا؛ لأنهم اعتبروا أنفسهم أوروبيين. ومع ذلك وفي العقود الأخيرة المضطربة لسلالة رومانوف[(3)] بدأ البعض يشعر بالقرابة مع الشرق، "وهو الاتجاه الذي بلغ ذروته في عشرينيات القرن التاسع عشر؛ لاسيما بين الأوراسيين، وهم المهاجرون الذين جادلوا بأنّ روسيا جمعت بين عناصر كلٍّ من أوروبا وآسيا[11: ص117–240].

ويُعد هؤلاء من أكثر الذين أثروا ثقافياً في نشوء فكرة تنازع الانتماء الروسي بين الشرق والغرب لكن هذه المرة بتوجه أوسع وذي إحالة قارّية تحدد موقع روسيا جغرافيا، وهذه النزعة ليست معنية بالبعد الجغرافي بقدر عنايتها بالانتماء الأنثروبولوجي ثم السياسي لروسيا.

وقد جرت "صياغة مصطلح أوراسي في منتصف القرن التاسع عشر فيما كان يسمى بالهند البريطانية، وكان يشير إلى أولئك الذين يعرفون بالهنود الأنجلو، وهم من أصول بريطانية وهندية مختلطة. وجرى استخدام المصطلح في الأدبيات الأنثروبولوجيا منذ الستينيات"[13:ص 64].

ثم نشطت الحركة الأوراسية بوصفها حراكا ثقافيا وشعبيا بعودتها إلى أصولها في مجتمع المهاجرين الروس في عشرينيات القرن التاسع عشر، وقد" افترضت الحركة أنّ الحضارة الروسية لا تنتمي إلى الفئة الأوروبية، وأن ثورة أكتوبر للبلاشفة رد فعل ضروري على التحديث السريع للمجتمع الروسي.

كانت هناك حركات مماثلة في بولندا والمجر واليونان. ومن أبرز زعماء الحركة: نيكولاي دانيلفسكي وهو مؤرخ وعالم طبيعيات اشتهر أيضا بمعارضته نظرية التطور لداروين وللأنواع التاريخية الثقافية ذات النسق النمطي. انظر:
Encyclopedia of Anthropology. Eduard I. Kolcjinsky. Nikolaj Jakovlevich Danilevsky. Publish: SAGE. 2006

(2) مسكوفيا أو روسيا الجديدة. وهي الكيان السياسي توسع منذ القرن السادس عشر الميلادي.

(3) نيكولاي رياسانوفسكي مؤرخ روسي الأصل ولد في 1923 ولد في منشوريا الروسية، في عام 1938 انتقلت عائلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إذ درّس والده في جامعة أوريغونو. تخرج من جامعة أوريغون عام 1942. وحصل على درجة الماجستير من جامعة هارفرد في عام 1947. درس في جامعة ايوا 1957. في هذا الوقت نشر كتاب: روسيا في الغرب. وأفضل كتبه تاريخ روسيا (1963). ونال استحسانًا لشمولها ودقته. توفي رياسانوفسكي عام 2011 عن عمر يناهز 87 عامًا.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

ويُطلق المصطلح على المفهوم السياسي الثقافي في روسيا باسم روسيا الكبرى، ويوصف بأنه تطلع سياسي للقوميين الوحدويين لعموم روسيا؛ لاستعادة بعض أو كل أراضي الجمهوريات الأخرى في الاتحاد السوفيتي السابق وأراضي الإمبراطورية الروسية السابقة"[14: ص101].

قد يبدو أنْ ليست هناك مِن اختلاف بيّنٍ بين الحركة السلافية وبين الحركة الأوراسية؛ وهذا من حيث المبدأ واردٌ؛ نظراً إلى أن كلا الحركتين الثقافيتين ترمي إلى تحديد موقع روسيا في العالم؛ لكننا نرى أنّ ما يميز الحركة الأوراسية عن نظيرتها السلافية هي أنَّ الأولى توجها قارّي جغرافية أكثر منه عرقي. حتى وإنْ خالفتا وعارضتا في أوقات معينة حركة التغريب أو الانتماء إلى الغرب الأوربي.

إلا أنَّ الميل إلى التغريب كان له امتدادات ثقافية متأخرة أخرى ذات نمط فكري؛ فقد ظهرت في البذور المبكرة للشيوعية غير الماركسية؛ وكانت تدعوا إلى التغريب على المستوى الاقتصادي والصناعي، ولم تكن ذات نمط عرقي أو إقليمي؛ فقد " شهد تاريخُ روسيا في القرن التاسع عشر حركاتٍ ثورية يحمل كلٌ منها فلسفةً ثورية كانت تقاوم الرجعيين وأتباعهم، ومتأثرة إلى حد كبير بآراء اسكندر هيرزن، وهو كاتب روسي مِن كبار المفكرين الراديكاليين، ولد في موسكو 25 آذار 1812، أصبح احد المثقفين الذين أرادوا تحديثها روسيا على النمط الغربي"[15: ص35–36].

إنّ ظهور مثل تلك التوجهات على الصعيد الثقافي أولا ثم السياسي يفصح أيضا عن أنَّ ثمة تذبذب واضح في موقف روسيا من الشرق والغرب بحسب المؤثرات والأحداث والشخصيات السياسية التي تحاول تمرير قناعاتها تجاه الموقف الروسي مِن الآخر. مع الأخذ بالاعتبار أنّ الموقف الثقافي يضارع الموقفَ السياسي وأحياناً يتفوق عليه من حيث النفاذ والتأثير؛ وخير مثال على ذلك " السؤال الذي طرحه الأديب والروائي الروسي دوستويفسكي Dostoevskyحول ماهية آسيا بالنسبة لروسيا.

سأل دوستويفسكي ذات مرة ما هي آسيا بالنسبة لنا؟ وتساءل عن أهمية الشرق في عمود صحفي كتبه؛ وكانت إجابته مباشرة: "إنها توفر المنفذ الرئيسي لمصيرنا في المستقبل]"15: ص37[. وسؤال دوستويفسكي في الحقيقة يمثل موقفاً مهمها ليس بوصفه أديباً له شهرته وسمعته؛ بل لأنه يمثل وبعمق جانبا من الثقافة الروسية ذات التأثير المعروف؛ ليس على الروس فحسب بل على العالم أجمع بوصفه أديبا عالميا له ثقله وحضوره. وموقفه هذا له ما يشبهه من مواقف مبثوثة في الإنتاج الأدبي والفني الروسي؛ وهنا نستقيه بوصفه نموذجا فحسب. وربما نجد آراءا وأفكار تتقاطع مع موقف دوستويفسكي نفسه، وهذا الحال معروف في التنوع الثقافي لدى الشعوب بعامة.

وبهذا المعنى الذي عناه دوستويفسكي نجد توافقاً بين رؤيته وبين الأفكار التي طرحها إدوارد سعيد بخصوص طبيعة الاستشراق ودوافعه، التي تؤكد أنّ التصورات والمواقف الأوروبية تجاه آسيا مرتبطة بالغزو الاستعماري والسيطرة على الآخر الأدنى، ضمن نزعة قائمة على المنفعة بالدرجة الأساس؛ فضلا عن الهيمنة السياسية والصراع بين الأمم الأوربية. ويذكر سعيد ناقلا عن جابرييل شرم:

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

" في اليوم الذي ينتهي فيه وجودنا في الشرق – ولا يزال للدول الأوروبية الكبرى الأخرى وجود فيه – سوف تنتهي تجارتنا في البحر المتوسط، وينتهي مستقبلنا في آسيا، وتنتهي حركة المرور في موانينا الجنوبية، وسوف يجف نبعٌ من أخصب منابع ثروتنا القومية"[16: ص342].

قد تبدو أفكارُ الروائي دوستويفسكي ابتداء دعوةً إلى أنْ يكون هناك تحالف مع الأوروبيين " لكن قراءة أعمق لمقاله تخالف وجهة النظر هذه وتناقضها. فـــ دوستويفسكي يمضي شارحاً موقفه بقوله: الروسي ليس أوروبياً فحسب، بل آسيويًا أيضًا. في إشارة إلى التصور الغربي المشترك، وأضاف: أنّ أمته شرقية؛ ويجب أنْ نحرر أنفسنا من هذا الخوف الذليل من أن الأوروبيين سيطلقون علينا برابرة آسيويين، ويقولون: إننا آسيويون أكثر من الأوروبيين، ومن الواضح أنه لم يكن هناك عيب في امتلاك هوية شبه شرقية"[.11]

وهناك مَن يرى أنَّ تأثيرات الثقافة البلقانية في محاولاتها الاندماج مع أوربا ذات ثقل ثقافي عميق على التوجه الروسي وعلاقته بالشرق. قد يكون ذلك صحيحاً؛ لكنه ليس العنصر الأوحد في التأثير.

نعم سعى العديدُ من المثقفين الروس "إلى تعريف أنفسهم على أنهم معارضون للثقافة الأوروبية الغربية، وقد فعلوا ذلك بالسعي إلى تصوير أنفسهم على أنهم الممثلون الرئيسيون للثقافة السلافية، وحددت تلك التصورات وفهمت عندما تفاعلوا مع سكان دول البلقان"[4][17: ص1–3]، ذوي الميول التغريبية آنذاك فتأثروا بهم تأثرا ثقافياً؛ وربما استهوتهم تبريراتهم التي تنزع إلى التوجه نحو الغرب في مقابل الانخلاع عن الدولة العثمانية. وهذا يعني التوجه حول إيجاد تاريخ مشترك يجمع الروس بالسلافيين البلقان، لكن في الحقيقة هو توجه له دوافع سياسية كما سنرى لاحقاً. وإنْ شابته دوافع عرقية وعقيدية وثقافية.

وعلى هذا "كانت البلقانُ وليس صالونات لندن أو باريس هي التي وفّرت مجالاً لمناقشة عناصر الهوية الروسية؛ عبر كتب الرحلات والمقالات الصحفية والرسائل المكتوبة من البلقان؛ فقد وجد أولئك الروس بين السلاف الجنوبيين تكامل هويتهم مع المجال الثقافي الأوروبي الأكبر؛ حتى في محاولاتهم تعريف أنفسهم بشكل منفصل عن أوروبا. علاوة على ذلك فإن كتاباتهم عبّرت عن مجموعة من القيم الثقافية التي كانت أقرب إلى أوروبا"[18: ص5]. لكنها قيم كانت تصب في النهاية في ترسيخ مصالح الدول الأوربية التي هي في موقف نزاع مع الدولة العثمانية التي كان لها نفوذ متباين على العديد من دول البلقان.

(4) سُميت البلقان نسبة إلى جبال البلقان وتقع على مساحة 468,787 كم2، وتقع ضمن هذه المساحة ست دول هي: ألبانيا، وبلغاريا، والبوسنة والهرسك، وكوسوفو، ومقدونيا، والجبل الأسود بالكامل. ودول أخرى قسم منها يقع ضمنها وهي: كرواتيا وصربيا، واليونان ورومانيا، وسلوفينيا، وإيطاليا، وتركيا. والواقع يصعب تحديد دول البلقان لأسباب جغرافية، وسياسية، لذلك ظهر اختلاف حول عدد الدول التابعة لها ويحد شبه جزيرة البلقان البحر الأدرياتيكي في الشمال الغربي، والبحر الأيوني في الجنوب الغربي ، وبحر إيجة في الجنوب. ويحتوي المصطلح على نوع من التحقير لذلك يفضل البعض تسمية جنوب شرق أوربا. أنظر: Gray, Colin S. Sloan, Geoffrey. Geopolitics, Geography and Strategy. ISBN 9781135265021. Retrieved 10 November 2014.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

ودول البلقان وبسبب تحريض الدول الغربية شرعت في البحث عن انتماء جديد ومغايرة في الهوية حتى وان كانت الهوية الجديد تمتد مع الآخر الغربي بعوامل مشتركة ضعيفة في مقابل العلاقات المتوترة مع الدولة العثمانية التي هيمنت سياسيا ولفترات طويلة على دول البلقان. لكننا بالعموم وبوصفنا تجمعات بشرية نتصف بسلوك يكاد يكون عاما في موقفنا من الآخر؛ فـــ " ما أن نتصور هويتنا بوصفها مكونة من انتماءات متعددة، بعضها يرتبط بتاريخ اثني وبعضها يرتبط بموروث ديني؛ لكننا ما أن نرى في ذاتنا وفي أصولنا تقاطعات وتهجينات ومؤثرات متنوعة ومتناقضة، حتى تتولّد لدينا علاقةٌ مختلفة مع الآخرين. ولا يعود هناك ببساطة «نحن» و«هم»، بل يوجد في جانبنا أشخاص أشترك معهم بأشياء قليلة جدا، وإلى جانبهم أشخاص أستطيع أن أشعر أنني قريب منهم"[19: ص31–32].

وعلى مدى أكثر من عقدين ظهر مفهومُ مجتمع البلقان الجديد بوصفه قوةً مواجهة للقوميات ذات النمط التوسعي والعسكري؛ بما في ذلك أوربا؛ متمثلة ببريطانيا وفرنسا، ثم الدولة العثمانية. ومنذئذ " أطلقت فكرة الترويج لتاريخ مشترك للمنطقة في البيئات السياسية والفكرية والتي كانت من بنات أفكار القادة الأوروبيين؛ لكن إعادة بناء تاريخ البلقان لن يكون جديدًا ليحل محل التواريخ الوطنية والأدوار التي تلعبها، إنه يسلط الضوء على العناصر فوق الوطنية باعتبارها ثقلاً موازناً للروايات التاريخية المتمحورة حول العرق أو حتى القومية"[20: ص91] التي اجتاحت أوربا منذ نهاية القرن الثامن عشر فصاعداً.

لقد انعكست التصورات البلقانية عن موقفها المتوتر من الدولة العثمانية وميلها إلى التغريب الأوربي على النشاط العرقي وتحديد الهوية لدى الروس أيضاً؛ وعلى مستوى ثقافيٍّ ورأي عام طال القواعد الشعبية الروسية أكثر مما طال المؤسسةَ السياسية.

والسؤال الاكثر إلحاحاً وأهمية في نطاق هذا البحث يتمحور حول مدى انعكاس ذلك على روسيا التي بدت في تلك الفترة تعيش حالةً قلقةً بخصوص تحديد الهوية الروسية بين غربية أوربية أو روسية شرقية؛ فالتقدم الصناعي الأوربي وتنامي هيمنتها السياسية والعسكرية على حساب التراجع العسكري العثماني هو الذي دفع السلافين إلى تغير نمطية نظرتهم تجاه أوربا والشرق؛ متمثلا بالدولة العثمانية؛ وأثّروا بهذا على مجمل الثقافة الروسية.

هذه التغذية المستمرة في الميل إلى الغرب الأوربي على حساب الشرق أججت عوامل الانفصام بين الروس عموماً وبين الشرق متمثلا بالدولة العثمانية، وظهر ذلك الانفصام بصورة نمط شعبي ورأي عام. وهو الأمر ذاته الذي نحت نحوه دول البلقان في الميل إلى أوربا القوية المتنامية وإنْ أدخلت ذلك في نطاق عرقي أو ديني؛ في مقابل علاقتها بالعثمانية والتي بدت في تلك الأزمان علاقة متوترة وصلت إلى حد الحروب.

قد يبدو عامل العرق والدين من العوامل المهمة في علاقة دول البلقان بالدولة العثمانية؛ لكنه كما ذكرنا حدث أيضاً نتيجة تحريض طويل المدى وبتأثير دول أوربا الغربية كإنكلترا وفرنسا، وكان ذا ثقل ثقافي ورأيٍ عام عززته الأدبيات والنشاطات السياسية الشعبية.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

فـــفي أواخر عام 1877 مثلا "أشار الناشط السلافي الشهير Evan Aksakovإيفان أكساكوف، إلى أن كلّ ما حدث في روسيا هو ظاهرة غير مسبوقة في تاريخ أي بلد: إذْ شن الرأيُ العام حرباً ضد دولة أجنبية من دون أي إرادة حكومية. وكان إعلان الحرب الروسية على الإمبراطورية العثمانية في 24 أبريل 1877 غير مسبوق؛ إذ ابتدأت الحربُ التي خاضتها روسيا يقودها الرأي العام؛ اذْ مارس الجمهور ضغوطاً على الحكومة التي –خلافاً لتقديرها الأفضل– انصاعت لإعلان الحرب على تركيا التي شكّل تدخلها في شؤون البلقان تداعيات دولية، أدت إلى تحويل الأزمة من نزاع محلي إلى صراع دولي. ونتيجة لذلك حوّلت روسيا عن غير قصد الأزمة الشرقية إلى قضية أوروبية وألقت بنفسها في دور قيادي"[18: ص5]. أي قامت بالمواجهة نيابة عن دول أوربا مثل فرنسا وبريطانيا؛ لكن دور روسيا في البلقان كان في الحقيقة يصبُّ في أيضا في صالح الدول الأوربية الغربية الكبرى، ويتواشج تماماً مع ممارساتها الأخرى ضد الدولة العثمانية سواء على المستوى السياسي أو العسكري.

والواقع فإن ما عزّز حدوث الموقف المناهض للدولة العثمانية من لدن دول البلقان حتى روسيا هو الضعف الذي بدأ يدب في أوصال الدولة العثمانية؛ الذي بدا توسعها غير متناسب مع قوتها واستعداداتها العسكرية قبالة التفوق الأوربي المتزايد؛ مما أغرى تلك الدول جميعاً باتخاذها موقفاً أكثر صرامة ومناهضة للدولة العثمانية.

بينما قبل ذلك جميعها كانت تتوجس من مثل هكذا مواقف ذات بُعد تصادمي واضح، فـــ"قبل هذا لم تكن هناك مسألة شرقية طالما كانت الدولةُ العثمانية في مرحلة التوسع وفي وضع يجعلها قادرة على حماية مكتسباتها. وقد بدأت المسألة الشرقية مع بداية انحسار المد التوسعي العثماني عن أوربا؛ ومع اتجاه العثمانيين المتزايد نحو فقدان تفوقهم العسكر مقارنة بدول أوربا... وغالبا ما كانت روسيا تتدخل في شؤونِ الولايات العثمانية خاصة ذات السكان الذين يعتنقون المذهب الأرثذوكسي، وعندما وقعت حرب القرم كان لها أثر كبير على مصير الولايات العثمانية الأوربية"[21: ص]

وكما يرى الأستاذ Shoplieshوبلييه في تاريخه (سيد العالم) فإن روسيا تحسب نفسها وارثة الإمبراطورية البيزنطية، وسياستها لا تتغير لأنها مبنية على الروح المخامرة للشعب الروسي، فإذا كانت الحكومة الروسية تكف إلى أجلٍ عن العمل لبلوغ الغاية التي عينها لها السلف، فإن الأمة الروسية لا تعدل عن طلب تلك الغاية، ولا تلبث أنْ تدعو حكومتَها إلى التقدم نحوها.

إن الروسيين يريدون الأستانة، وهم لا يريدونها عاصمة لهم بل عاصمة الاتحاد الصقلبي (السلافي)؛ ليقيم فيها رئيس المذهب الأرثوذكسي ويجمع حوله جميع صقالبة البلقان، لكنْ لما فشلت روسيا في تأليف الجامعة الصقلبية أخذت تبدو لأوروبا في مظهر مَن عجز عن فتح أية بلاد عثمانية. ولما انتصرت في حرب

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

عاد أنصارُ الجامعة الصقلبية في روسيا فجدّدوا آمالهم وتوهموا أن صقالبة البلقان وصقالبة النمسا سينضمون إلى روسيا، ولكن السياسة الدولية لم تبقِ مجالًا كبيرًا لتلك الآمال بعد معاهدة برلين"[22: ص25].

لكن لاحقاً ومع تحقيق روسيا مكاسب في الحرب ضد الدولة العثمانية التي بدأت عام 1828 بات من الواضح أن اختلاط الذرائع العرقية والدينية لروسيا إنما عبرت عن حقيقة توسعية رأتها مناسبة لها في تلك الأحوال والظروف، ولم يكن ذلك ليتمّ من دون دفع ثقافي وتوجيه فكري لدول البلقان بخطاب اختلطت فيه الدوافع لكنه في كل الأحوال كان الدافع الأساس هو التوسع تحت تلك الذرائع، فـ"في الحرب الروسية العثمانية 1828–1829 كانت لروسيا مطالب سياسية ودينية، تجمعها وأيديولوجية أرثوذكسية سلافية في هذه الحرب، لذلك سعت الإمبراطورية الروسية، بغطاء القرابة والتقارب الديني، إلى استخدام سلطتها في أغراض إمبريالية. وهكذا كانت السياسة السلافية للإمبراطورية الروسية تتمثل في إعادة توحيد الشعوب السلافية بغية الاستيلاء على أقاليم الإمبراطورية العثمانية"[23: ص2041].

والتذبذب الحاصل في مواقف روسيا تجاه الدولة العثمانية هو ذاته التذبذب الأوربي من الدولة العثمانية نفسها. فبينما نرى دور الدول الأوربية الكبرى السلبي ضد الدولة العثمانية في البلقان سنشهدها وهي تحارب مع الدولة العثمانية في حرب القرم (1853–1856) ضد روسيا. وهذا يدلل على أن لا موقف روسيا من التغريب والانخلاع عن الشرق، ولا موقف دول أوربا الكبرى ذات البعد العقائدي أو العرقي البحت؛ وإنما هو صراع مصالح سرعان ما تتلاشى أمامه الدوافع العرقية والعقائدية. وإن زمن ميل الروس إلى أوربا في عملية التغريب التي تحدثنا عنها هو الوقت نفسه الذي كانت فيه بريطانيا وفرنسا متحالفة مع الدولة العثماني في حرب القرم ضد الإمبراطورية الروسية. ويعبّر كل هذا الاضطراب عن قلق الهوية واضطرابها في خضم الأحداث السياسية آنذاك.

شكّلت خسارة روسيا المهينة في حرب القرم هستيريا معادية للغرب وصورة متضخمة للذات. ونلمح ذلك جليا في مذكرات أحد قادتها وهو من الكتاب والسياسيين البارزين في روسيا آنذاكEvan Librandiايفان ليبراندي[5].هو أحد المدافعين عن الحاجة إلى نظام جديد في جنوب شرق أوروبا.

ألقى لبراندي باللوم عل سلوك الغرب في البلقان على معاداته روسيا. وقد استخدم البلقان مراراً ذريعةً لتعزيز مكانة روسيا داخل أوروبا، بناءً على ما اعتبره المعرفة المتفوقة لبلاده في المنطقة. ودعا إلى الطرد

(5) إيفان ليبراندي هو ضابطٌ في المباحث الروسيّة ولواء في الجيش وكاتب مذكّرات وزعيم حزبي وخبير في الجزء الأوروبي من الإمبراطورية العثمانية في العقود الوسطى من القرن التاسع عشر، وُلِدَ في 28 يوليو 1790 وتوفّي في 21 مايو 188. وهو الشقيق الأكبر لـِ بافل ليبراندي أحد الضُبّاط المعروفين في حرب القرم. انظر:

Victor Taki From partisan war to the ethnography of European Turkey: the Balkan career of Ivan Liprandi, 1790–1880. Canadian Slavonic Papers Revue Canadienne des Slavistes Volume 58, 2016 - Issue3.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a

Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652

humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

الكامل للأتراك من أوروبا وتحرير السلاف. وفي رأيه أن الغرب هو الذي وقف في طريق تحقيق هذه الرؤية. وادعى أن العديد من منتقدي روسيا في أوروبا الغربية لن يسمحوا لدول البلقان بالتحرر من الإمبراطورية العثمانية، لأن الغرب كان خائفٌ من روسيا، وان لروسيا دوافع توسعية في البلقان، لذلك يعتبرها العدو الرئيسي له.

كان عدم الثقة بروسيا أمراً شائعاً في الغرب، إذ عدّ الكثيرون المسألة الشرقية مرادفة لـــلقضية الروسية. بينما يصرّ براندي على أن اهتمام روسيا بالمنطقة إنسانياً، وأنه على الرغم من أن الدين عامل مشترك بين روسيا ودول البلقان إلا أن البلقان مهمة أخلاقيا لروسيا، ودعا وبأسلوب مبهج إلى أنّ الروس في شهامتهم دائماً ما يمدون يد العون إلى جميع الأمم المحتاجة، بغض النظر عن دينهم وأن أبناء وطنه سيشعرون بنفس الشعور إذا كان أولئك الذين يعانون مسلمون أو يهود"[18:ص 168–169].

وهكذا نرى أنْ موقف روسيا من تركيا متذبذب ومتوزع المستوى، وهو الأمر ذاته الذي يعكس اضطرابها من قضية تحديد الهوية الجيوسياسية والعوامل المصلحية، فهي لم تتحول في البداية إلى كيان استعماري إمبريالي ذا توجه معلوم؛ وإنما بقيت محكومة بتصورات ومواقف عرقية ودينية وثقافة ذاتية مغايرة لحال أوربا الغربية، لذلك خضعت للاجتياح البلشفي لاحقاً، وتغيرت نحو الماركسية بخلاف دول أوربا الكبرى.

ولقد استمرت آمال روسيا تشرق وتغرب بخصوص موقفها من تركيا، إلى أن رأت دول البلقان تعقد التحالف ضد تركيا فأيدتهم، "وليس هناك من براهين دامغة تدلنا على أن ذاك التحالف صنيعة روسيا كما كان يُنشر في بعض الجرائد الأوروبية، بيد أن الأمر الذي لا جدال فيه هو أن إضعاف تركيا يتماشى مع مصالح روسيا ويعزز آمالها القديمة من حيث أنها رئيسة الصقالبة، فلا يمكنها أن تهملهم، ولا يمكنهم أنْ يخوضوا معمعان حرب قبل أنْ يثقوا بأنها لن تخذلهم، وهم يعلمون أن الدول التي وضعت معاهدة برلين لم تسهر على حرمتها، بل تركت بلغاريا تخترقها بأخذ الروملي الشرقية، ثم سمحت للنمسا بأن تضم البوسنة والهرسك إلى أملاكها، فقام في أنفسهم أن الدول التي لا ترضى بحل تركيا قد تسبب لها مشاكل عظيمة.

ومن هنا قال المؤرخ شوبلبيه:

"لا يدحض هذا القول أنّ روسيا والنمسا سعتا بالأصالة عن نفسيهما ونيابة عن سائر الدول العظمى في سبيل منع الحرب، وأنهما نصحتا لحكومات البلقان بالعدول عن العدوان، فإن البلقانيين كانوا يعلمون كنه سياسة الدول ويثقون بأن روسيا لا يمكنها عند الضرورة أن تنبذ تقاليدها أو تعرض عن الرأي العام في إمبراطوريتها، ولقد أصابوا الغرض؛ اذ أن فرح الشعب الروسي بانتصار البلقانيين بلغ حدّاً قصيّاً ... فكيف تستطيع حكومة روسيا أن تغفل رأي الجمهور الروسي وتلك عواطفه؟!"[18:ص170]، وهذا يعني كما ذهبنا آنفا إلى أنَّ المد الثقافي والرأي العام داخل روسيا نفسها له ثقل كبير في تحدي موقفها من البلقان أولا ومن تركيا العثمانية عموما.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a

Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652

humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

"ومع ذلك فإنّ بروز البلقان في الرأي العام الروسي لم يكن مقدراً ولا حتمياً. ففي بداية القرن التاسع عشر، كان لدى القليل من الناس في روسيا معرفة بشبه جزيرة البلقان أو سكانها. وعلاوة على ذلك، كانت روسيا دولة مطلقة قبل ستينيات القرن التاسع عشر (عندما تم تخفيف قواعد الرقابة)، فلم تسمح إلا بدور سياسي محدود للرأي العام. وفي هذه النافذة من التساهل النسبي، تمكن الكتاب والمسؤولون من خلق نقاش عام يبدو أنه تمحور حول البلقان.

كان ذلك الخطاب فعالاً للغاية إلى درجة دفع شرائح كبيرة من السكان للمطالبة بإجراء حكومي. وجادلت الصحافة الروسية بقوة للتدخل نيابة عن السلاف الجنوبيين. وهكذا كان هناك شيء مهم على المحك في البلقان: الهوية الوطنية الروسية؛ فدعا الكثير من الروس الذهاب إلى الحرب بمسوغ الدفاع عن السلاف الجنوبيين والحفاظ على صورة روسيا ومكانتها في أوروبا"[18: ص5].

وهذا معناه أنّ هناك عوامل تاريخية سبقت هذا الحراك في توجهات روسيا السياسية والعرقية تجاه الشرق وميلها شيئا فشيئا إلى الغرب الأوربي؛ فالدعوة إلى التغريب كانت قد نشطت منذ أنْ تبلور التطور الأوربي في النطاق العسكري والسياسي وحتى الثقافي. مما يعني الوقوف المناهض للوجود العثماني بوصفه جزءا من الكينونة الشرقية.

وقد تركز الكثير من تلك الأدبيات المتعلقة بروسيا القرن الثامن عشر على ما آلت إليه جهود بطرس الأكبر في التغريب بدافع الوعي القومي في روسيا، ويؤيد هانز روجر النظرية القائلة " بأن الإحساس بالذات يظهر في مواجهة الآخر، مشيراً إلى أن الذات القومية على وجه التحديد تم تحديدها وتعريفها بالاتصال بالآخر الأجنبي"[24: ص6] .

ولكنْ ما هي العوامل الأخرى التي ساعدت على تفشّي هذه النزعة في الثقافة الروسية؟.

في الواقع أننا أفضنا في الحديث عن الحراك الروسي في قضية موقفه من العثمانيين ومن أوربا، وقرأنا الأسباب والدوافع؛ لكننا لم نكن معنيين بتسليط الضوء على دور السياسة العثمانية في هذا المجال: لأن محور البحث يتناول الحراك الروسي البلقاني، لكن من المفيد الإشارة إلى الدور السلبي للعثمانيين – على المستوى الثقافي – في تفعيل موقف الروس من الشرق عموما؛ ومن تركيا على الخصوص.

والذي نلمحه من هذا أن تفشي الانتشار الغربي في الثقافة البلقانية أولا ثم الروسية لم يقابله لدى العثمانيين تحرك مناسب للحدِّ من هذا المدّ الثقافي الذي سيكون له انعكاسات خطيرة على مستقبل الدولة العثمانية وعلاقتها بروسيا؛ فالتشدّد والانغلاق لازم الثقافة العثمانية بالعموم على حساب الانفتاح ومدّ اذرع التواصل مع الآخر لاسيما الروسي.

كان " الاتجاهُ الشائع في الدراسات السياسة العثمانية لاسيما في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين التأكيد على الطبيعة البراغماتية والانتقائية وفي بعض الأحيان المفككة. ويفسر الفكر العثماني المتأخر حقيقة أنّ المثقفين العثمانيين نادراً ما أنتجوا أعمالاً تتميز بالصرامة والتماسك. ولقد أنتج أولئك

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

المؤلفون أفكاراً برغماتية؛ بدلاً من البرامج المنهجية. خلا نمط المرونة والانتقائية الذي نجده لدى بعض العثمانيين الذين سعوا إلى استقاء تصوراتهم من الفكر السياسي الأوروبي وربطوها بالتقاليد الإسلامية. لكن عموما كان منتجو تلك الأفكار من البيروقراطيين الذين لا يمكن أنْ تكون لهم الأولوية العملية، كالصحفيين والكتاب المسرحيين والروائيين الذين يحتاجون إلى جمهور واسع"[25: ص6].

وهذا الحال وإنْ كان يتعلق بالجانب العثماني فهو عمليا أسهم في تكوين صورة سلبية لعموم الدولة العثمانية لدى خصومها التقليديين لاسيما الروس. وأول منافذ هذه الصورة السلبية الضعفُ والارتباك السياسي الذي لحق بالدولة العثمانية وانعكس على قدراتها السياسية والعسكرية.

أمّا المنفذ الآخر فبقاء الدولة العثمانية بعيداً عن التجديد الفعلي والتطور المادي والتقني والثقافي؛ مما جعلها تبدو كيانا عاجزا ومفارقا للتطور والتحديث الغربي. وبقيت تعبر عن طابعها الديني الذي يقف منه الغرب عموما موقف المناهض والمفارق.

ومِن البديهي أن يتّجه الخصوم إلى الطرف الأقوى والأكثر حداثة وحضورا وتطلعا نحو المستقبل؛ في واقع شهد تغيرات جذرية في نمطية العلوم والثقافة، بينما بقيت الدولة العثمانية رمزا للركود والتأخّر؛ لاسيما في الأقاليم التابعة لها؛ التي باتت متخلفة عن ركب الحضارة والتحديث ووقعت في مطب الفقر والضعف وأصبحت عرضة للإطماع الاستعمارية المختلفة. ثم انتهى كل هذا إلى خسارة الدولة العثمانية قوتها ومهابتها بعد الحرب العالمية الأولى فصاعداً.

الاستنتاجات:

يتلخّص محورُ البحثِ في تسليط الأضواء على طبيعة العلاقات الروسية من الآخر العثمانية، بوصفه نداً ومنافساً لروسيا؛ فيما قبل نشوء الاتحاد السوفييتي. وتلك العلاقةُ حكَمتها عواملُ متعددة بعضها يرجع إلى طبيعة الثقافة الروسية ذاتها، وبعضها يعود إلى التدخلات الأوربية، وتأثر الروس بها، فضلا عن التحولات السياسية والثقافية التي ضربت بثقلها على الأقاليم الأوربية؛ ونعني بها دول أوربا الشرقية ودول البلقان، التي كانت متذبذبة من حيث الهيمنة والحكم بين الروس والدولة العثمانية؛ مما عزز نشوء المدّ العرقي، وميل الهوية فيها إلى أوربا وانعكاس ذلك على الدولة الروسية.

إنّ موقف الروس من الآخر العثماني في الغالب موقفٌ سياسي؛ وكثيرا ما تحوّل إلى موقف سلبي بين الطرفين بفعل ذلك الصراع السياسي، الذي في غالب الأحوال كان له تأثير في بلورة الميل الديموغرافي والثقافي الروسي باتجاه الغرب على حساب الشرق الذي كان فيما قبل تلك الأحداث له حضوره في هاجس العقلية الروسية، فكثيراً مِن المفكرين والسياسيين الروس كانوا يعدّون روسيا بلاداً شرقية أولا ثم غربية أوربية.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

وهذه القضية شكّلت أحد أركان البحث من حيث دراسة أسباب هذا التحول ودوافعه. نعم هناك عوامل جغرافية وأخرى عقائدية تدخلت في بلورة الانتماء الروسي إلى أوربا على حساب انتمائها إلى الشرق، لكنْ بالتالي تجتمع عوامل مختلفة لتشكيل هذا التحوّل؛ مما يحتاج إلى تحليل لهذه الحالة لاسيما مع بروز أثر الروس من جديد في العالم الشرق أوسطي حاليا؛ لذلك تعزّزت الدراسات التي تنعى بهذا التدخل وتحلل جذوره التاريخية والسياسية والثقافية. فروسيا على الرغم من حمَلات التحديث والغربنة فما زال انتماؤها إلى أوربا قلقا؛ ومتذبذباً وسلبياً على مستويات مختلفة.

المصادر:

(1) KIRILL A. FURSOV. Russia and the Ottoman Empire: The Geopolitical. Dimension vol. Russian Studies in History journal, Taylor & Francis Group 57, no. 2, 2018.
(2)Victor Taki. Russian-Ottoman Wars and Modern Russian Identity. Oxford: Blackwell, 1994, 369-370.
(3) Edward Said, Orientalism. New York: Vintage Books, 1979.
(4) إيناس سعدي عبد الله، اسامة عدنان يحيى، تاريخ روسيا الديني، دار اشور بانيبال، ط1، بغداد، 2019.
(5) عدنان سيلاجيتش، مفهوم أوربا المسيحية للإسلام، تــرجمة جمال الدين سيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016، 115.
(6) علي شعيب، بطرس الاكبر، قيصر روسيا، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992.
(7) نوح فلدمان، سقوط الدولة العثمانية ونهوضها، تــرجمة: الطاهر بو سياحة، الشبكة العربية للأبحاث، ط1، بيروت، 2014.
(8)Russian-Ottoman Wars and Modern Russian Identity, Op.Cit.
(9) Larry Wolff, The Invention of Eastern Europe: the Map of Civilization on the Mind of Enlightenment. Stanford.: Stanford University Press, 1994. Maria Todorova, Imagining the Balkans. New York: Oxford. University Press, 1997.
(10) تزفتيان تودوروف، الخوف من البرابرة– ما وراء صدام الحضارات، ترجمة: جان ماجد جبور، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2009.
(11) History of Russian Thought.. William Letherbarrow & Derrek Offord, P. 217-240. eds. Cambridge: Cambridge University Press, In, 2010,.
(12) A History of Russian Thought.. William Letherbarrow & Derrek Offord, P. 217-240. eds. Cambridge: Cambridge University Press, In, 2010,.
(13) Current Anthropological Literature, Volumes 1–2. American Anthropological Association and the American Folk-lore Society. 1912.
(14) Chapman, Thomas; Roeder, Philip G. (November 2007). "Partition as a Solution to Wars of Nationalism: The Importance of Institutions". American Political Science Review.

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652
humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH

(15) إيناس سعدي عبد الله، من القيصرية إلى الاشتراكي، تاريخ روسيا الحديث. 1894– 1917. أشور بانيبال للكتاب، ط1، العراق، 2019.

(16) ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، بيروت 2006.

(17) Sarah McArthur Being European: Russian Travel Writing and the Balkans, 1804-1877. April 2010. University College London. School of Slavonic and East European Studies.

(18) أمين معلوف، الهويات القاتلة. قراءة في الانتماء والعولمة.، تــرجمة: نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر، دمشق، 1999.

(19) The Balkan and the European union Samuel Adu-Gyamfi, Edward Brenya, University of Science and Technology (KNUST. Epiphany: Journal of Transdisciplinary Studies, Vol. 9. 2, (2016) © Faculty of Arts and Social Sciences

(20) Sarah McArthur Being European: Russian Travel Writing and the Balkans, 1804-1877. April 2010. University College London. School of Slavonic and East European Studies.

(21) ماهر حامد جاسم، حرب القرم وتقرير مصير ولايات البلقان العثمانية (1853 – 1856 م)، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل. العراق، المجلد السابع، عدد نيسان 2019.

(22) يوسف البستاني، تاريخ حرب البلقان الأولى بين الدولة العلية والاتحاد البلقاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة 2012، القاهرة.

(23) Nurzhigit Abdukadyrov. Russian-Turkish war of 1828-1829 and political positions of European States. aPhD Al-Farabi Kazakh National University 050040 Al-Farabi av. No 71 Almaty/Kazakhstan.

(24) Hans Rogger, National Consciousness in Eighteenth-Century Russia (Mass.: Harvard University Press, 1960).

(25) Alper YALÇINKAYA. Ottoman inconsistencies, Europe’s paradoxes: Ahmed Midhat Efendi on Science and Spirituality. Universid

Journal of the University of Babylon for Humanities (JUBH) is licensed under a

Creative Commons Attribution 4.0 International License

Online ISSN: 2312-8135 Print ISSN: 1992-0652

humjournal@uobabylon.edu.iq Email: www.journalofbabylon.com/index.php/JUBH